الزوايا والمدارس القرآنية في أقاليم توات ودورها في نشر العلم والمحافظة على المخطوطات

Zawaya and the Qur'anic Schools in the Regions of Tuat and their Role in Spreading Science and the Preservation of Manuscripts

الأستاذ أحمد جعفري

مخبر المخطوطات الجزائرية في إفريقيا

الجامعة الإفريقية أحمد درايعية أدرار الجزائر

.edu.dzadjaafri@univ-adrar

تاريخ الاستلام: 2023/02/10

تاريخ القبول: 2023/05/01

النشر: 2023/05/31

ملخص:

تعد الزوايا والمدارس القرآنية في أقاليم توات من أبرز وأهم المؤسسات العلمية في نشر العلم والمحافظة على المخطوطات ، وذلك بالنظر إلى أدوارها الأساسية التي باتت تؤديها منذ تأسيسها من خلال تخصيصها لجزء كبير من أوقافها للجانب التعليمي من جهة دعما ومؤنة ، وبتوفُّرها على كثير من خزائن المخطوطات والكتب التي شكلت رافدا أساسيا نهل منه الطلبة والمريدُون على حد سواء من جهة أخرى.

الكلمات المفتاحية : الزوايا / المدارس/ توات / العلم / الوقف / مخطوطات

Abstract

Zawaya, plural form of the Arabic word zawiya, meaning a traditional religious campus, in the regions of Tuat are considered amongst the most important scientific institutions in spreading sciences and in the preservation of manuscripts with regard to their fundamental roles, which have been performing since their establishment through devoting a big part of their endowments to support the education and scientific activities. They also provided a number of traditional libraries (khizanat) that constituted a basic source for students and devotees alike.

KeyWords: Zawaya ; Schools ; Tuat ; Science ; Endowments ; Manuscripts

*المؤلف المرسل: الأستاذ أحمد جعفري .edu.dzadjaafri@univ-adrar

مقدمة :

يعتبر الإقليم التواتي(01) على امتداد تاريخه الطويل والزاخر بالأحداث أحد أهم مناطق ومراكز الزوايا والمدارس القرآنية الوقفية الخيرية على مستوى القطر الجزائري عموما، إذ أنه وابتداء من القرن السادس الهجري تاريخ قدوم الشيخ مولاي سليمان بن علي وتأسيسه لأول زاوية وقفية خيرية بالإقليم على الأرجح سنة (581هـ) توالى تأسيس الزوايا والمدارس الوقفية في هذا الإقليم تباعا، ليصل العدد مع مطلع القرن الخامس عشر الهجري إلى أزيد من مائة زاوية ومدرسة قرآنية كبرى، وبتعداد طلبة ومتمدرسين هو الأول على مستوى القطر الجزائري بما يفوق الستين (60000)ألف طالب، ومئات الشيوخ والأئمة. فكانت بذلك هذه الزوايا والمؤسسات الخيرية أحد أهم وأكبر رافد من روافد العمل الخيري التطوعي والتوعوي داخل المجتمع وطنيا وإقليميا.

لقد كانت هذه المؤسسات ومنذ تأسيسها بداية موطنا أساسيا ،ومَعينا صافيا في مَصَبّ الحياة العلمية والثقافية بالمنطقة ، حيث أن جل علماء المنطقة مروا في تعليمهم وتعلُّمهم بالزوايا والمدارس القرآنية العامة المنتشرة في كل أقطار الإقليم بما تقدمه مجانا من وجبات ثقافية دسمة ومتنوعة أولا ، وبما توفره من مأوى ومطعم لروادها ثانيا ،وفي ذلك يقول الشيخ مولاي أحمد الطاهري واصفاً المنطقة وزواياها: " ومن عادتهم إكرام الضيف، والمسافر لا يحتاج إلى حمل الزاد معه، لأن في كل قصر من قصورها عادات، فإذا كان القصر فيه زاوية لها أحباس على إطعام الطعام للأضياف فإن المسافر يقصد دار الزاوية فيجد فيها كل ما يحتاج إليه هو ومن معه، فيجد حتى علف الدّواب... وما أكثر هذه الزوايا في ذلك القطر العزيز المبارك"(الطاهري مولاي أحمد –د ت– ص).

كما أن هذه المؤسسات الخيرية وبتخصيصها لجزء أكبر من أملاكها للجانب التعليمي من جهة، وبتوفرها على كثير من خزائن المخطوطات التي كان العلماء يترددون عليها ليشكلوا حلقة درسهم وتعلمهم من جهة أخرى، قد شكلت منارة حقيقية ووحيدة في الإقليم لكل العلماء العاملين في هذا المجال خاصة، وكذا طلبة العلم والمعرفة عامة. وهو الدور الذي كان محل إعجاب العام والخاص من علماء المسلمين المترددين على تلك المواطن حيث يقول الشيخ محمد مرتضى الزَّبيدي صاحب القاموس المحيط في وصف الشيخ أحمد بن محمد بن عبد الرحمن أبي نعامة التّواتي صاحب الزاوية العلمية المشهورة في توات: "...منازلهم في أقبلي من عمالة توات، وزاويتهم محترمة، وقد تولى مشيخة ركب الحج كعادة أبيه وجده، وكنت قد سمعت به ووصلت إليّ أخباره وكاتبته، وعقدت معه عقد

الأخوة، ثم ورد علينا حاجا في أثناء سنة 1197هـ فاجتمعت به، وشاهدت من محاسنه ومكارم أخلاقه ما يفوق عن الوصف، وقد عقدت معه عقد الأخوة والمحبة، وسمع مني أشياء، وكتبت له الإجازة، ودعا لنا بخير وعاد لبلاده، ولا تنقطع عني مراسلاته وهداياه بارك الله فيه"(الزبيدي .1431هـ ج01 ص79)

وهذا الموقف نفسه نجده يتكرر مع الشيخ مولاي أحمد الطاهري العالم المغربي المتجول الذي ساقته الأقدار إلى هذه الديار التواتية سنة ألف وثلاثمائة وستة وخمسين هجرية (1356هـ، 1937م) على الأرجح، فوجد في قصورها وأوقافها الخيرية ضالته المعرفية والعلمية بما خصصه سكانها من وقف خاص بالعلم والعلماء، وهو ما مكنه سريعا من تأسيس مدرسة علمية خيرية، وظل يشتغل بها حتى وفاته المنية وفي ذلك يقول: "ساقتنا الأقدار إلى تلك الديار دون معرفة سابقة بيننا وبينهم وإنما هي من أحسن المصادفات، فوجدنا فيهم أحسن الأهل، ووجدت بها ضالتي المنشودة فاستقام بها لنا المقام وحسن العيش وأرغده في بذل غاية الجد والاجتهاد في التدريس آناء الليل وأطراف النهار، وتعليم أولاد المسلمين من كل الطبقات""(الطاهري مولاي أحمد –د ت– ص).

وإذا كان مصطلح "الزاوية "أو المدرسة الخيرية قد عرف في عمومه منذ أوائل القرن (08هـ) وكان يطلق على مكان معد للعبادة، كالمسجد، ويشتمل على المرافق للطلبة المجاورين به، وإيوائه للواردين عليه وعابر السبيل(نسيب محمد .دت ص 30)، فإنه عند أهل توات يشار به إلى تلك الصدقات الخيرية الجارية التي يحبّسها الشخص في حياته لتبقى بعد وفاته عملا خيريا مستمرا وصدقة جارية نافعة ، وهذا من خلال نص موثق ومحدد، يُحَبِّس فيه جملة من الأملاك الخاصة، وقد يكون لها مكان وموقع خاص، ويشرف عليها الشخص المؤسس ذاته في حياته، وبعد وفاته يتعاقب عليها (مقدَّمين) على التوالي. وتنقسم هذه المؤسسات الوقفية عند أهل توات إلى ثلاثة أنواع: زاويا الضيافة، زوايا العلم، زوايا الضيافة والعلم معاً.

وهذه الزوايا والمدارس الوقفية الخيرية جميعا ساهمت كثيراً في توفير المأوى والمطعم وكل ما يحتاجه الزوار إلى هذه الديار، كما كانت أيضا مقرات خاصة يتردد عليها الطلبة والعلماء ليشكلوا حلقة درسهم وتعلمهم، وهو ما يمكن اعتباره جميعاً دعامة خيرية أساسية وموطناً أساسياً من مواطن الدرس العلمي بالمنطقة.

وإلى هذا كله كانت الزوايا بتوات محطة أساسية ورافدا مهما يتزود منه الرحالة وعابروا السبيل خلال مسارهم الطويل داخل الصحراء .بما تفرته هذه المؤسسات الخيرية من زاد معرفي وعلمي لزائريها من الرحالة، إضافة إلى المأوى والمطعم وحسن الاستقبال، وهو ما جعل العديد من الرحالة يثنون عليها في رحلاتهم، ويُدَوّنون مقراتها كمحطات أساسية في كتاباتهم، كما هو حال الشيخ سيدي عبد الرحمن بن عمر التنلاني(1189هـ) (02)الذي

يقول في مخطوط رحلته في طلب العلم التي انطلق فيها من مقر زاويتهم بتنلان(03) بعد صلاة جمعة يوم العاشر من شهر جمادي الثانية سنة(1188هـ)، حيث يقول: "فخرجنا من بلادنا بعد صلاة الجمعة العاشر من جماد الأخير ونزلنا مدينة تمنطيط(04)،اصفرار يومنا وأقمنا بها يوم السبت، وأسرينا منها وقلنا زاوية الجديد(05)ثم أسرينا منها وقلْنا زاوية الرقاد(06) وبتنا بها ثم رحلنا منها لقرية بوعلي (07) ... وقلنا يوم الجمعة قرية تمقطن(08)، ثم رحلنا منها لزاوية سيدي أبي الأنوار(09)، وأقمنا بها ثلاثة أيام، ثم رحلنا منها لأولف الأشراف (10)وبتنا به، ثم لزاوية تقرافت،(11) وبتنا بها... ثم رحلنا لزاوية أبي نعامة(12)نفعنا الله به وزرناه، وهو الذي أحيا سنة الحج من بلاد توات والتَّكرور، فأقمنا بها أربعة أيام..."(ضيف الله بن محمد بن أب .دت) وعلى طول خط الرحلة، وفي كل محطة من محطاتها كما رأينا كان يتردد اسم زاوية أو مدرسة وقفية مشهورة بالإقليم توقف فيها المؤلف وأقام فيها ليوم إلى ثلاثة ضيفا كريما معززا على شيوخها ومورديها .

وإذا انتقلنا إلى المضمون العلمي في هذه الزوايا وما انفردت به واجباتها العلمية المقدمة لمريديها، نجد أنها قد تميزت بمنهجها المستقل في التدريس والذي يتخذ من الفارق العمري بين أفراد المجتمع من جهة وبين مضمون المدونات المرجعية من جهة أخرى. مجالا أوحد للتفرقة بين المتعلمين.فالطلبة هنا يتلقون دروسهم وواجباتهم العلمية بحسب كل صنف من الرواد،فنجد أولا صنف المبتدئين، ثم صنف المتوسطين، ثم صنف الخاصة. حيث يبدأ الشيوخ والمعلمون بهذه المؤسسات دروسهم مع طلبتهم في الصنف الأول بقراءة وتحفيظ القرآن ثم التدرج إلى شرح ابن عاشر، ورسالة بن أبي زيد القيرواني في الفقه، وإلى الآجرومية والملحة الحريرية في النحو. أما بالنسبة للمتوسطين من الطلبة فكانوا يقفون معهم في الفقه مثلا على لامية الزقاق ومع الرسالة بتعمق. أما بالنسبة للخاصة والمتفوقين فكان الوقوف معهم في النحو مثلا عند مغني اللبيب لابن هشام وغيرها من الكتب الخاصة والمتخصصة. وقد تخرج من هذه الزوايا والمدارس الوقفية على امتداد فترة اشتغالها منذ القرن السادس الهجري وإلى وقتنا الحاضر آلاف الطلبة والأئمة من الحاملين لكتاب الله والمتفقهين في علومه(غيتاوي مولاي التهامي .ص65). ولقد اضطلعت في ذلك ومنذ تأسيسها بأدوار خيرية بارزة ومتميزة نابعة من صميم أهداف رسالتها التي تأسست ووُقّفَت من أجلها، ويأتي في طليعة تلك الأدوار والأهداف الخيرية التطوعية تمثيلا لا حصرا:

أولا: في مجال تحفيظ كتاب الله والتحفيز عليه: فهي لم تكتف بفتح أبوابها أمام طلبة العلم، بل إن بعض شيوخ الزوايا والمدارس التعليمية حددوا في وصاياهم الوقفية الخيرية نصيبا لحفظة القرآن عامة يزيد وينقص بحسب عدد سور القرآن المحفوظة. وهي مبادرة خيرية خلاقة جعلت من طلبة العلم في هذا الإقليم يتنافسون صبية على حفظ كتاب الله، ويتخصصون شيوخا في تفسير آياته، والتأليف في علومه. ونمثل هنا بالشيخ سيدي عبد الرحمن بن

عمر التنلاني التواتي (1189هـ) خريج زاوية تنلان وصاحب المؤلفات العلمية العديدة أهمها مخطوطه في شرح كتاب الحلبي المسمى بالدر المصون في علم الكتاب المكنون والكتاب مخطوط في ما يزيد عن أربعمائة صفحة(13). كما نجد للشيخ سيدي محمد بن العالم الزجلاوي (1212هـ) خريج زاوية زاجلوا مؤلفات مختلفة كذلك أشهرها ما ألفه في غريب القرآن(14). أو مثل الشيخ المختار الكبير الكنتي صاحب المؤلفات الغزيرة كتابا أهمها كتابه: فقه الأعيان في حقائق القرآن ويضاف إلى ذلك عشرات المخطوطات في هذا الباب. .والأمر هنا لا يقتصر على فئة دون أخرى بل نجد الولد والبنت والصبي والصبية ،كما نجد الرجل والمرأة والعجوز والعجوزة، لكن مع تفاوت في الزمان والمكان وبعض متطلبات كل مقام. وهو ما ساهم كثيرا في مكافحة الأمية بشتى ألوانها وأصنافها .

ثانيا: في مجال تعليم الفقه وسائر العلوم اللغوية والدنيوية:

ولقد اعتمدوا في الفقه أساسا على جملة من مصادر التشريع المالكي(الدباغ محمد وآخرون .ص 13) المعروفة والمتداولة في أقاليمنا المغاربية على الأشمل، وقد فاقت الثلاثين مصدرا من مصادر التشريع الإسلامي نذكر من ذلك تمثيلا لا حصرا: كتاب الموطأ للإمام مالك، والواضحة لأبي مروان الأندلسي(ت 238)، ومدونة الإمام سحنون (ت240هـ)، وكتاب ابن المواز الإسكندراني(ت269هـ)، والرسالة لأبي زيد القيرواني (ت386هـ)، وكتاب الإعلام بنوازل الأحكام للإمام ابن سهل(ت486هـ)، ونوازل ابن رشد(ت 520هـ)، وكتاب النهاية والتمام في معرفة الوثائق والأحكام للقاضي أبي الحسن علي بن عبد الله الفاسي، وكتاب مجالس المكناسي أو مجالس القضاة والحكام وغيرها من أمهات المصادر التشريعية.

وفي علوم الحديث نجد الاعتماد كليا على كتاب صحيح البخاري، وموطأ الإمام مالك، والبيقونية، وكذا ألفية السيوطي في الحديث وغيرها .أما في علوم اللغة فنجد الاعتماد ظاهرا على ألفية ابن مالك، والأجرومية، وكتاب قطر الندى وبل الصدى، وكذا لامية الأفعال، ومثلث قطرب، وكتاب شذور الذهب في معرفة كلام العرب وغيرها من الكتب المتخصصة.

وفي هذا الباب أيضا لم يكتف سكان الإقليم بالاعتماد على ما وفرته هذه المؤسسات الخيرية من مصادر ومراجع للتدريس بل تعدوه إلى التأليف والإبداع في هذا المجال، وخلفوا في ذلك عشرات المخطوطات الفقهية واللغوية التي تعج بها وإلى الآن هذه المؤسسات الوقفية نذكر من ذلك تمثيلا لا حصرا: غنية المقتصد السائل فيما وقع بتوات من القضايا والمسائل .جمع مشترك بين سيدي الحاج محمد بن عبد الرحمن ،وابنه سيدي عبد العزيز

وسيدي محمد العالم البكري بن سيدي محمد الجزولي. المحفوظ بخزانة تمنطيط أدرار. نوازل الشيخ الزجلاوي المحفوظ بخزانة زاوية زاجلو. ولاية أدرار. نوازل الشيخ الجنتوري المحفوظ بخزانة قصر كوسام. ولاية أدرار وغيرها من كتب الفقه.

وفي علوم اللغة نجد مخطوط غاية الأمل في إعراب الجمل للشيخ البكري المحفوظ بخزانة المدرسة البكرية بتمنطيط. ومخطوط نيل المراد شرح لامية ابن المجراد لمحمد بن أُبَّ المزمري (1160هـ) المحفوظ بخزانة الزاوية البكرية، وكما نجد العديد من المخطوطات في العروض والبلاغة والصرف وغير ذلك.

وفي مجال التاريخ والتراجم والأنساب كانت الزوايا والمدارس الوقفية شاهدة أيضا على حركة تأليفية خصبة في هذا المجال حيث نذكر من ذلك تمثيلا لا حصرا: مخطوط (القول البسيط في أخبار تمنطيط) لصاحبه محمد الطيب بن عبد الرحيم المشهور باسم (ابن بابا حيدة) المحفوظ بالخزانة البكرية بتمنطيط. ومخطوط "تراجم بعض علماء ومشايخ الشيخ عبد الرحمن بن عمر التنلاني": العالم عبد الرحمن بن عمر التنلاني. المحفوظ بخزانة زاوية تنلان. ولاية أدرار. ومخطوط "جوهرة المعاني في تعريف علماء الألف الثاني": لمحمد بن عبد الكريم البكري. المحفوظ بالخزانة البكرية تمنطيط. ومخطوط درة الأقلام في أخبار المغرب بعد الإسلام": للعالم سيدي محمد بن عبد الكريم البكري. وكذا مخطوط الدرة البهية في الشجرة البكرية، لمؤلفه الشيخ الحاج محمد العالم. وهما مخطوطان محفوظان بخزانة الزاوية البكرية بتمنطيط أدرار. كما نجد أيضا مخطوط نقل الرواة عن من أبدع قصور توات: لصاحبه محمد بن عمر بن محمد الجعفري. خريج الزاوية الجعفرية ببودة بتوات، وهو مخطوط لا يزال محفوظا بهذه الزاوية ومخطوط نسيم النفحات في ذكر أخبار توات للشيخ مولاي أحمد الإدريسي مؤسس المدرسة الطاهرية الوقفية الشهيرة بتوات. وهو مخطوط محفوظ بخزانة هذه الزاوية.

ومن مخطوطات السير والتراجم التي خطت في هذه الزوايا وبأقلام التواتيين أيضا نذكر مخطوط الدرة الفاخرة في ذكر المشايخ التواتية لصاحبه الشيخ سيدي محمد بن عبد القادر بن عمر التنلاني. وهو مخطوط محفوظ بخزانة زاوية كوسام. بتوات. يضاف إلى ذلك أيضا مخطوط لذاذ الأقوات في من حل أورحل من أرض توات لصاحبه الشيخ الحاج أحمد النحوي البوحامدي. خريج المدرسة الطاهرية الوقفية بسالي.

وهذه النماذج المذكورة جميعها هي غيض من فيض ونقطة من بحر هائل في هذا المجال ويكفي أن نشير هنا إلى أنه وقبل عملية النهب والضياع التي تعرض لها المخطوط في هذه المؤسسات الوقفية الخيرية ، والتي بدأت قبل القرن

17 الميلادي كان يوجد بزوايا الإقليم ومدارسه الخيرية أزيد من سبعة وعشرين ألف مخطوط، وهي موزعة على أزيد من مائة زاوية ومدرسة خيرية وقفية خاصة.

ويضاف إلى كل هذا العدد ما هو محفوظ خارج الجزائر في خزائن ومراكز مالي وموريتانيا والمغرب وغانا والسنغال والنيجر ونيجيريا وغير ذلك من الدول الإفريقية والإسلامية التي تأثرت بنهضة الإقليم، حيث يذكر السعدي في كتابه تاريخ السودان " أن قائمة العلماء المشهورين في مساجد وجوامع مدن الغرب الإفريقي ومراكزه الحضارية يشكل التواتيون من بينهم نسبة تقارب النصف"(السعدي عبد الرحمن . 1898). كما يذكر القاضي محمود كعت صاحب "الفتاش" أن كل جامعات الغرب الإفريقي ومساجده كانت خلال القرن الخامس عشر وحتى القرن السابع عشر الميلادي حافلة بالطلبة والعلماء من منطقة توات"(كعت محمود .1964.ص 15.).

ثالثا: في مجال الدعوة ونشر الإسلام والذود عنه في كثير من بقاع العالم:

ونمثل في ذلك بما قامت به الزاوية الكنتية خصوصا في غرب إفريقيا. حيث لم يكتف علماء هذه الزاوية بنشر تعاليم الإسلام داخل أدغال القارة السمراء فحسب، بل وقفوا أيضا سدا منيعا ضد كل المحاولات التغريبية من قبل الاستعمار ولا أدل على ذلك من شهادة الفرنسيين أنفسهم في الأمر، حيث نجد الباحث والجنرال العسكري الفرنسي "بول مارتي" يعترف صراحة بدور الزاوية الكنتية خصيصا في مواجهة الاستعمار الفرنسي في بلاد الجزائر وما جاورها من البلدان الإفريقية فيقول: "وقد كانت الضرورة تقتضي إنشاء مركز عسكري في آدرار ايفوغاسن... وفضلا عن ذلك فإن إدارة كنته ذاتها وتحقيق الارتباط مع بلاد الجزائر قد فرض إنشاء هذا المركز المذكور وقد قام المقدم "بتريكس" بذلك في دجنبير (ديسمبر)1908"(بول مارتي .دت ص 161). ويقول هذا القائد الفرنسي في حق الشيخ زين العابدين بن سيدي محمد الكنتي الذي ولد في ضواحي تمبكتو سنة 1848م وترعرع في الزاوية الكنتية بمنطقة توات، وعايش الدخول الفرنسي للإقليم تحديدا مع مطلع القرن العشرين. وكان من ألد خصوم فرنسا الإستدمارية. يقول بول مارتي عن هذا الشيخ: "وأصبحنا نحن الفرنسيين نعتبره في عداد أشد أعدائنا الألداء"(بول مارتي .دت ص 161). ويضيف في وصفه أيضا "والذي ظل خلال أكثر من عشرين عاما يسبب لنا المتاعب وينهب الأفخاذ الخاضعة بغزواته التي لا تهدأ"(بول مارتي .دت ص 161).ثم يردف شهادتَه تلك بشهادة أحد القادة الفرنسيين آنذاك العقيد "كلوب" الذي يلخص موقف فرنسا من الرجل فيقول: "الموت وحده الذي ينقذنا من عابدين"(بول مارتي .دت ص 161)..

ولقد استمرت مقاومة الرجل للاحتلال الفرنسي أزيد من خمسة وعشرين سنة (1890 إلى سنة1916) وتنقل خلال هذه المدة بين مناطق الجزائر ومالي وموريتانيا وأخيرا المغرب الذي سقط فيه شهيدا. إبان الحرب العالمية الأخيرة(بول ماريتي .دت ص 161). وغير هذا الرجل كان لكثير من علماء الزاوية الكنتية الدورُ نفسُه في المنطقة. وقد غصت كتب التاريخ وغيرها بمثل هذا وغيره. وقد كان الداعم الأساسي لكل تلك العمليات الدعوية والجهادية هو ما وفرته الزوايا والمدارس الوقفية الخيرية من أوقاف وأحباس خيرية خاصة وعامة انتفع بها الزوار قبل المريدين ..

شعارهم في كل ذلك قوله جل من قائل " ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويامرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب أليم " (سورة آل عمران ألاية 105/104) .

بهذا كله وغيره كثير أمكن القول إن جميع تلك اللقاءات التي دارت بين شيوخ الزوايا ومجموع الساكنة في إفريقيا الغربية خاصة قد أعطتنا صورة واضحة لما وصلت إليه الحضارة الإسلامية من الازدهار والرقي في تلك المناطق خلال القرنين التاسع والعاشر الهجريين، كما أنها قد عكست لنا في الوقت نفسه الدور البارز والرائد الذي قام به أولئك الدعاة المتطوعة في سبيل إرساء قواعد الدعوة الإسلامية وإخضاع المعارف الإسلامية في تلك الديار لمحك الأخذ والرد والعطاء وتوسيع دائرة النقاش العلمي(ميقا أبو بكر إسماعيل1979ص 170) ومعه توسعت رقعة الإسلام ،وصححت كثير من المفاهيم والأفكار المغلوطة التي ظلت معششة لفترة طويلة جدا من الزمن في أذهان كثير من الأفارقة حكاما ومحكومين على السواء .

رابعا: في مجال مكافحة الأمية والجهل بمختلف ألوانه وأشكاله :

وذلك بفتح قاعات خاصة لتعليم الكبار مبادئ القراءة والكتابة. ويكون ذلك في أوقات خاصة وخارج أوقات العمل المعهودة، وقد استفاد من العملية وبالمجان عدد هائل من سكان الإقليم على مر التاريخ.

خامسا: في مجال المساهمة في نسخ المخطوطات وكافات الوثائق التاريخية:

لقد غدت المنطقة في ذلك وإلى الآن خزانا حقيقيا للمخطوطات في الجزائر قاطبة بما يزيد عن سبعة وعشرين ألف مخطوط –كما ذكرنا –. ذلك أن المخطوط بصفة عامة وجد في هذه المؤسسات الوقفية الخيرية من زوايا ومدارس خاصة نعم المأوى والمستقر، فيها حُررت معظم مضامينه الفكرية حبرا على الورق، وفيها أيضا أعيد نسخه وتدريسه أحيانا مرات ومرات، وفيها أيضا استقر ووُطّن مئات السنين هربا من الضياع والنسيان. وبهذا كله استطاعت هذه المؤسسة الخيرية ومنذ تأسيسها أن تكون أهم رافد في نهر الحياة الثقافية والاجتماعية للإقليم

بالإضافة إلى وقوفها الصامد والمتميز طيلة هذه الفترة كصمام أمان في وجه كل الحملات التخريبية والتغريبية ضد مقومات الأمة وعناصر هويتها.

خاتمة :

هذا باختصار بعض من أهم الأدوار الأساسية الخيرية التي ساهمت من خلالها هذه المؤسسات الوقفية في احتضان وبعث العمل الخيري التطوعي في مجال نشر العلم والمحافظة على المخطوط على امتداد أكثر من تسعة قرون (09 ق) بما وفرته من غطاء مادي ومعنوي طيلة هذه المدة، وهو الغراس الذي أثمر ويثمر إلى الآن، مما أكسب الأسرة و المجتمع التواتي تماسكا وقوة كانتا ولسنوات طويلة صمام أمان في وجه كثير من الصدمات التاريخية والاجتماعية التي عرفتها الجزائر في تاريخها القديم والحديث معا، وهو ما أعطى للإقليم من ناحية أخرى بعده التاريخي والحضاري بين كبريات العواصم التاريخية قديما وحديثا. وما عشرات الأعلام البارزين الذين تخرجوا من هذه المؤسسات الوقفية، وتركوا لنا تراثا مخطوطا، وآثارا وقفية خيرية مرصوصة هنا وهناك ، وما مئات الطلبة والأئمة من حاملي كتاب الله والمتفقهين في علومه الذين عجّت وتعجّ بهم هذه المؤسسات إلى الآن، والذين تجاوز عددهم في آخر إحصاء رسمي لوزارة الشؤون الدينية بالجزائر عدد الستين (60000) ألف دارس كما ذكرنا إلاّ خير شاهد على ما فعلته وتفعله هذه المؤسسات العلمية الوقفية الخيرية إلى الآن.

لكن مع كل هذا يظل التحدي قائما مع هذه المؤسسات الوقفية، بل نراه يزداد حدة مع مرور الزمن ومتغيرات العصر وهو ما أصبح يحتم عليها إعادة النظر في كثير من برامجها وأنشطتها التطوعية وكذا في طرق تفعيل واستثمار أوقافها وأملاكها الخيرية تماشيا مع ما يتلاءم وظروف العصر، ومتطلبات الظرف وهو ما يتطلب استغلالا أمثل لتلك الهبات الخيرية و الأملاك العينية من عقارات وأراضي زراعية وأشجار ونخيل وحيوانات ومحلات تجارية وغيرها. بما ينمي من ثروات تلك المؤسسات ويحافظ على بقائها. كما ينبغي للمؤسسات الرسمية الفاعلة في الدولة التعاطي مع هذه المؤسسات من باب حمايتها وتشجيع مبادراتها الخيرية بما يساعد في الدفع بها وبأنشطتها الخيرية نحو الأمام .ومن ثم اعتبار هذه المؤسسات الخيرية التطوعية شريكا رسميا وفاعلا مكملا للعمل العلمي الاصلاحي التربوي الذي تقوم به مؤسسات الدولة لا عملا منافيا ومنافسا لها. خدمة للمصلحة المشتركة .

الهوامش والاحالات :

1 / تقسم توات إلى ثلاثة أقاليم حيث يقع إقليم تيديكلت جنوب مقر الولاية حالياً وهي من قصر فقارة الزوى بعين صالح حتى رقان، أما إقليم قورارة فهي إلى الشمال من قصر تبلكوزه شمالاً إلى قصر تسابيت جنوباً، وأما

توات فهي وسط بينهما. ينظر: تقييد ما اشتمل عليه إقليم توات من الأيالة السعيدة من قصور ووثائق أخرى. ص02 ، المطبعة الملكية الرباط ،1381 هـ ، 1962م، ،وسكان تدكيلت القدماء والاتكال على النفس .الحاج التومي سعيدان ص18 وما بعدها . ط2005/01.دار هومة الجزائر.

02 هو سيدي عبد الرحمان بن عمر بن محمد بن معروف بن يوسف بن أحمد... ويصل نسبه إلى ثالث الخلفاء الراشدين سيدنا عثمان(رضي الله عنه) ولد في مسقط رأسه بتنلان وتنقل بين عواصم تاريخية كبرى وأخذ بها عن شيوخ أجلاء ترجم لهم في مخطوط خاص .توفي بمصر أثناء عودته من الحج وكان ذلك تحديدا في اليوم التاسع والعشرين من صفر سنة(1189هـ) ودفن بمقبرة الشيخ سيدي عبد الله المنوفي بمنطقة قايَتْبَايْ ضواحي القاهرة. من آثاره: مخطوط مختصر الدر المصون في إعراب الكتاب المبين. مخطوط تراجم شيوخه. مخطوط مختصر النوادر في الفقه. مخطوطات ثلاثة أرخ فيها لرحلاته إلى الحج، أو في طلب العلم. بالإضافة إلى تقيدات فقهية مختلفة وقصائد شعرية عدة.

(ينظر ترجمته في : مخطوط تراجم شيوخه. ومخطوط ترجمة وجيزة لبعض علماء توات ص29 وما بعدها، ومخطوط الدرة الفاخرة في ذكر المشايخ التواتية ص03.

03 من قصور توات. أسس به الشيخ سيدي أحمد بن يوسف زاوية علمية كبيرة سنة1078هـ،

04 تمنطيط كانت عاصمة الإقليم قديما. وهي تقع جنوب الولاية أدرار بنحو عشر كيلومترات تقريبا وبها فرع مشهور من الزاوية البكرية.

05 تعود لمؤسسها الشيخ سيدي المختار بن سيدي محمد بن عومر. و تقع على بعد خمسة وأربعين كم تقريبا من مقر الولاية أدرر .وهي تابعة إداريا لبلدية تامست.

06. المقصود هي الزاوية الكنتية التي تعود في تأسيسها إلى الشيخ سيدي أحمد بن محمد المعروف بالرقاد. وهي على بعد خمسة وسبعين كم تقريبا جنوبا من مقر الولاية أدرار.

07. من قصور بلدية زاوية كنته يعود في تأسيسه إلى أبي علي البرمكي. كان موطنا للشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي في نهاية القرن التاسع وبداية القرن العاشر. وهو مدفون بجوار هذا القصر.

08. من قصور بلدية أولف بإقليم تدكلت جنوب الولاية أدرار بنحو 235 كلم تقريبا.

09 من قصور بلدية أولف بإقليم تدكلت جنوب الولاية أدرار بنحو 230 كلم تقريبا. والزاوية تحمل اسم مؤسسها الشيخ أبي الانوار

10 من قصور بلدية أولف بإقليم تدكلت جنوب الولاية أدرار بنحو 225 كلم تقريبا. وهو قصر يحمل اسم ساكنيه من الاشراف.

11 من قصور بلدية أولف بإقليم تدكلت جنوب الولاية أدرار بنحو 220 كلم تقريبا.

12 من قصور بلدية أقبلي بإقليم تدكلت جنوب الولاية أدرار بنحو 280 كلم تقريبا.

13. المخطوط محفوظ بزاوية تنلان وعليه نسخ عدة .وقد قام طالب في جامعة الجزائر مؤخرا بتحقيق جزء منه. وقد ذكر المرحوم الشيخ باي بالعالم أن الأستاذ أبو عبد التواب عبد المجيد بن علي رياش من المملكة العربية السعودية يعمل حاليا على تحقيق هذا المخطوط ودراسته .ينظر محمد باي بالعالم .الغصن الداني في ترجمة وحياة الشيخ عبد الرحمن بن عمر التنلاني .دار هومة الجزائر 2004.ص81.

14. المخطوط محفوظ بزاوية زاجلو وعليه نسخ عدة .وقد قام الأستاذ عبد القادر بقادر من الجامعة الإفريقية بأدرار بتحقيقه في إطار رسالة الماجستير دفعة 2008.

المصادر والمراجع

*/ القرآن الكريم برواية ورش

01. بكراوي الحاج محمد دت . ترجمة وجيزة لبعض علماء توات. خزانة قصر تمنطيط. ولاية أدرار .

02. بكراوي الحاج محمد دت .جوهرة المعاني في تعريف علماء الألف الثاني: خزانة قصر تمنطيط. ولاية أدرار

03. البكري محمد بن عبد الكريم .دت . درة الأقلام في أخبار المغرب بعد الإسلام:. خزانة قصر تمنطيط. ولاية أدرار.

04. البلبالي وآخرون .دت .غنية المقتصد السائل فيما وقع بتوات من القضايا والمسائل. .خزانة تمنطيط . ولاية أدرار.

05. بلعالم محمد باي .2005. الغصن الداني في ترجمة وحياة الشيخ سيدي عبد الرحمن بن عمر

التنلاني.ط1.الجزائر.

06. بن زيطة حميدة وآخرون. 2004. الفقارة في ولاية أدرار دراسة تاريخية اجتماعية اقتصادية . وحدة بحث .جامعة أدرار

07. بول مارتي .دت .كنته الشرقيون . تعريب محمد محمود ولد ودادي .مطبعة زيد بن ثابت دمشق. سوريا.

التنلاني عبد الرحمن بن عمر.دت . تراجم بعض علماء ومشايخ الشيخ عبد الرحمن بن عمر التنلاني: . خزانة قصر تنلان. ولاية أدرار.

08. التنلاني محمد بن عبد القادر بن عمر .الدرة الفاخرة في ذكر المشايخ التواتية:. خزانة قصر كوسام. ولاية أدرار.

09. السعدي عبد الرحمن 1964. تاريخ السودان،. تحقيق هوداس، مطبعة بردين باريس، 13/.كعت محمود .1964م. تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس .تحقيق هوداس و دلافوس.مطبعة بردين. باريس.

10. التومي الحاج سعيدان .2005.سكان تدكيلت القدماء والاتكال على النفس. الحاج التومي سعيدان. ط01 .دار هومة الجزائر

11. الطاهري مولاي أحمد .دت. نسيم النفحات في ذكر جوانب من أخبار توات:. خزانة قصر كوسام. ولاية أدرار.

12. غيتاوي مولاي تهامي .2005.سلسلة النواة في إبراز شخصيات من علماء وصالحي إقليم توات . المطبعة الحديثة للفنون المطبعية. الجزائر.

13. مجموع .1962. تقييد ما اشتمل عليه إقليم توات من الأيالة السعيدة من القصور ووثائق أخرى،المطبعة الملكية المغرب الرباط.

14. ميقا أبو بكر إسماعيل 1997م . الحركة العلمية والثقافية والإصلاحية في السودان الغربي من400هـ إلى1100هـ. في عهد المماليك الإسلامية غانا، مالي، سنغاي، التي قامت في غرب إفريقيا بين القرن4هـ و11م. أ.د. مكتبة دار التوبة.

15.نسيب محمد .دت . زوايا العلم والقرآن بالجزائر، محمد نسيب، دار الفكر الجزائر.